"الشعر العربي"

اللغة عنصر من عناصر الحياة يجب أن يتجدد باستمرار

الأستاذ إلياس فنصل ، بوينوس آيريس"

ترجمة الاستاذ محمد محمد الخطابي

تلقينا هذا البحث القيم من الاستاذ الياس فنصل وهو عبارة عن محاضرة القاها حضرة الاستاذ باللغة الاسبانية من الاذاعة الارجنتينية تحت رعاية المعهد الثقافي الارجنتيني ـ العربي بعنوان : « تمهيد لمعرفة الثقافة العربية » وقد نشرنا الاصل في مكان آخر من هذا العدد

ليس هناك شعب من بين الشعوب القديمة فاق الجنس العربي في تقديره للشعر ، ونستعمل كلمة « تقدير » ونحن على علم انها لن تستطيع ان تعطينا التعريف القاطع للاحترام الذي كان يوليه العرب لفن الشعر .

البديهيات على ذلك كثيرة ، فحتى **تاريخ العرب في الجاهلية انما هو تاريخ الشعر .**

وكل ما نعرفه من اخبار الحقبة التي سبقت الاسلام جاءت مروية ضمن « القصائد » التي وصلتنا منذ ذلك العهد ، والتي ما زالت حتى ايامنا هذه موضع بحوث ودراسات مختلفة .

تلك القطع الشعرية الموضوعة على نسق واحد ـ التي جادت بها القرائح في عزلة الصحراء وفي لحظات الضيق الروحي ـ رغم القرون البعيدة ـ ما زالت تحتفظ حتى الآن بالنكهة التي تصور لنا حنينا موسيقيا نحو الاوطان .

واذا استثنينا من هذه القطع الشعرية الكلمات التي فقدت مدلولها بمرور الزمن ـ ونحن نعتبر **اللغة عنصرا مجهزا من عناصر الحياة ينبغي له أن يتجدد بصفة مستمرة** ـ اي اذا استثنينا الكلمات التي لم تعد تكتسب صبغة الحاضر ـ والتي هي قليلة جدا ـ فاننا سنجد في **الشعر العربي الجاهلي تعبير الروح النقية الصافية لمشاكل الحياة العصرية ، هذه الروح** التي هي شبيهة « برادار » كفيل بالتقاط اقل ذبذبات القلق الانساني .

لقد كانت « الكعبة » التي تقع في مدينة « مكة » بمثابة المكان المقدس لدى القبائل العربية ، وفي مطلع كل عام ، كان يهرع نحو هذه المنطقة ، ذوو الوقار والمهابة من مختلف الميول والاتجاهات ، لاقامة تجمعات كبيرة ، كانت ذات موضوع مميز الا وهو الادب ، حيث كانوا ينشدون القصائد التي تخضع لنقد بناء ، ويحللون فيها تلك التي تتوافق واهواء العامة ، واجود هذه القصائد ـ اي التي كانت تحظى برضى الحكام الثقات ـ كانت تكتب على رقوق فاخرة ثم تعلق على « الكعبة » . في هذا المكان الذي كان ينال احترام الجميع من شيخ القبيلة العظيم الى الرجل العادي المجهول ، كان في امكان الجميع قراءة هذه القصائد ، وبهذه الوسيلة يصبح **للفن والبلاغة شعائر وطقوس .** ولما جاء الاسلام الغى هذه العادة التي كانت تتضمن بعضا من الوثنية البدائية . وفي تلك الحقبة نفسها كانت تقام دعائم **المباريات الادبية** التي ما زالت لها ردود فعل عديدة في الوقت الحاضر . لقد كان « **سوق عكاظ** » ضربا من « **الاولمبياد** » **الفني** ، كان يضم

احسن الشعراء ينشدون امام الجميع آلافا من اجود القصائد المنتقاة . ودائما كان هناك مراقبون من « حكام الكلمة » المتسمين بالنزاهة والانصاف ، يدلون بافكارهم القيمة ، والذين كانوا صريحين فى آرائهم وموجهين فى احكامهم ، **وكانت القصائد المختارة بمثابة البرهان الكبير على عظمة القبيلة التي ينتمي اليها الشاعر الفائز .**

ان الاسلام لم يضع حجر العثرة فى طريق الشعر المزدهر ـ كما يزعم ذلك بعض المستشرقين ذوي النظرة السطحية العجلى ـ وانما **جعل الاسلام هذا لعبادة الوثنية وحولها الى اهتماماته العادية ؛ ويحسن القول انه احل محلها معرفة فنية خالصة .**

« حسان ابن ثابت » الشاعر العظيم الذي كان صديقا حميما للرسول « محمد » رافقه فى عديد من غزواته ، وتغنى بانتصاراته ، كان النبي يوليه اهمية خاصة واضعا بذلك الشعر فى مكانه المناسب من الاعتبار دون ان يسمو به الى قمة الالوهية او يهوى به الى سفح الانحطاط .

وحينما بسط العرب نفوذهم حول العالم ظفر الشعر العربي ظفرات جديدة ، تحول الى وسيلة لنشر الافكار ، وتعضيد قوى الفتح الجديد ، وتسخير الاتجاهات السياسية ، رافلا فى ثوب جديد من اثواب البيان ؛ تحول الى قاعدة للنشر والذيوع ، وقام بالدور الذي تقوم به الآن الجريدة والمذياع والتلفاز .

كانت الامور غريبة ، بحيث يحدث ان نجد اثنين من الشعراء المرموقين ذوي نزعات متباينة وهما يجاهدان تحت سياسة واحدة ، ذات مصلحة عليا تهم العالم العربي واماراته التي كانت تمتد من الشرق الى الغرب .

وكانت للمعركة ايديلوجيات مختلفة ، فاحيانا تكون معمقها ذات سلاح متنوع قاطع ، تكون الكلمة البليغة احده واخطره ، واحيانا اخرى تكون سخرية حرة من خلال تطاحن الكلمات ، الشيء الذي يوضح لنا بجلاء التمكن التام من اللغة ، ويبرز لنا ـ فى ذات الوقت ـ الذكاء الخارق للعادة المسخر لخدمة المثل العليا .

سيطول بنا الحديث اذا عددنا الامثال ، وترجمنا القصائد ، او اذا شرحنا المواقف ، غير انه لا بد لنا ان نورد **ثلاثة من الشعراء الذين يشكلون فى رأينا ـ صروح القمة فى الشعر العربي القديم .**

انهم **الوان مختلفة ذات قدرة بلاغية ، دعائمها الخيال الخصيب ، والملاحظة الحازمة والحجة القاطعة.** ان دواوين الشعراء الثلاثة ما زالت تدرس ـ حتى ايامنا هذه ـ فى المدارس ، وستوف تظل دائما موضوعات بحث وتحليل .

« **المتنبي** » الشاعر الذي اودع الخيال العربي فى القصائد ، وهو الذي عين فى امثال سيارة طريقة التفكير عند العرب ووسيلة تصويرهم للحياة وكل ما هو موجود فيها من سمو وقوة .

ككل عبقري كان « المتنبي » يعد من المفتونين الاكابر الذين ينشرون ـ فى كل مكان ـ اشعارهم وامثالهم بين الاعداء المتطرفين الذين كانوا ينتقدون على المتنبي كبرياءه وفروره اللذين جاوزا كل حد .

لقد كان المتنبي ، فى نظرته الرجولية يعي جيدا طموح الماضي العربي ، كان **نذيرا متحمسا لوحدة العرب ، وواحدا من المبشرين بالقومية النقية من كل تعصب .**

الشاعر الثاني هو « **المعري** » الذي كان ضريرا منذ طفولته البعيدة ، **الرجل الواسع المتبحر العارف باحاسيس البشرية** ، لقد كان **فيلسوفا** بالمعنى الدقيق للكلمة ، وكانت فلسفته متنوعة بحيث شملت كل انواع الاضطرابات وجميع مستويات العقل ، سواء كان يتخللها حزن متعاقب او يعلوها حدث سعيد. انه ساخر رقيق تكاد تكون سخريته غير مرئية ، ولقد كان يضمن سخريته هذه افكاره التي كانت تتعارض ووجهات نظر الحكام .

وحسب البحوث الاخيرة الخالية من كل تعصب، فقد تاثر « دانتي » فى كتابته لعمله الخالد « الجحيم » او (الكوميديا الالهية) ـ تاثر « برسالة الغفران » للمعري التي كانت مترجمة فى ذلك العهد الى لغات مختلفة .

الشاعر الثالث هو « **ابن الرومي** » وهو الذي يكمل **الثالوث الحاكم فى الشعر العربي** ، هذا الشاعر الذي **اثرى الشعر العربي بغنائياته التي هي جديرة بكل اعجاب** ، هذا العاشق الواله للجمال فى جميع اشكاله ، لقد استطاع هذا الشاعر ان يسبر ابعد افوار التفكير ، نطبع كل ذلك فى قصائد حافلة بالحركة والحياة . لقد كانت عيناه المتلهفتان ابدا الى التقاط كل مظاهر الحياة ، بمثابة عدستين فوتوغرافيتين غاية

في الحساسية تلتقطان ادق دقائق الامور ، باعثتين الحياة في كل الاشياء ، ان اوصافه لما كان يراه او يحس به او يجري وراءه ـ انما هي استعراض متوال من الصور التي تفوق كل شيء حيوية ونقاوة ولمعانا.

لم تتوان المراة العربية في مشاركتها المحمودة في الشعر العربي ، لقد عرفت الكثيرات ممن قرضن الشعر ، ولكي تتضح لنا مشاركة المراة في عالم الفن نورد الحكاية التالية :

سال خليفة احد رعاياه المشهورين مرة فقال له :

ـ بلغني انك تستطيع ان تنشد الف قصيدة فهل هذا صحيح ؟ .

فاجاب الاعرابي :

ـ اجل يا صاحب المهابة ، ولكن هل تريدون ان اسمعكم الالف قصيدة من شعر الرجال ام من شعر النساء .. ؟ (1)

ان الشعر العربي المعاصر قد تاقلم مع طبيعة الحياة العصرية ، مدفوعا بتجدد العقل العربي بعد ان عاش احداث اربعمائة سنة من الضيق الخارجي محتفظا ـ في جوهره بكآبة خفية ـ عن اجياله الماضية.

ان الشاعر العربي المعاصر يقف حاملا بين اعطاف قلبه حيرة يصعب تحديدها ، هذه الحيرة التي كانت تستولي على روح الاعرابي الذي كان عليه ان يقطع كل يوم صحاري لا نهاية لها ، محدقا في الآفاق التي تنتهي عند خط مستقيم دون حافز للتساؤل .

ولا ندعي القول بان الشعر العربي المعاصر قد احتفظ بماضيه المشرق ، ذلك لان « فن القول » في العالم قد تقهقر ازاء الاكتشافات العلمية الحديثة ، ولم تكن الثقافة تكتسب قيمتها من الخيال الفسيح ولا من الكلمة المؤثرة الجميلة ، **ولكن رغم كل ذلك ما زال الشعر العربي يحتفظ ـ باصالته وقدرته الهائلتين ـ** في مقل هذا الجنس ، وهذا عامل من الاهمية في شيء بالنسبة للنهوض العربي الفائق .

لا نقول ان الشعر العربي المعاصر يتميز بطابع معين يحدد هذا الشعر ، ذلك انه عانق كل ـ او تقريبا كل ـ القوالب المعقدة للحياة العصرية ، ولا نجزم بان الشعر العربي الحديث يسير في طريق محكم يسهل توضيحه بل انه قد تعرض لجميع المشاكل المتنوعة في حياتنا الراهنة .

ان المؤرخ النزيه الذي يؤرخ لتطور الشعر العربي المعاصر لا يستطيع الاستغناء عن ذكر ـ **ظاهرة من ظواهر هذا الشعر ـ التي تكاد تنفرد بنفسها بين تواريخ الادب عامة** . فاذا كان حقا ان الشعر العربي قد بلغ اوج عزه في مواطنه الاصلية : فانه لحق كذلك ان **هذا الشعر قد اكتسب لمعانا واشراقا ملحوظين في بلاد امريكا** .

ان مئات من الآلاف المهاجرين وعلى الخصوص في الارجنتين والبرازيل ـ كان من بينهم شعراء كبار ، ساهموا مساهمة محمودة في الادب العربي .

ان سماء هاتين الجمهوريتين ، وجمهوريات اخرى قد جمعت تحتها كثيرا من الشعراء العرب الذين رفعوا عاليا امجاد اوطانهم النائية معبرين بدلك عن الحب الذي يكنونه لبلادهم الام الكائنة وراء البحار ، ومشيدين ـ في نفس الوقت ـ بعظمة الاثر المكتوب

ان هؤلاء الشعراء البعيدين عن مسقط رؤوسهم والذين كانوا ملجمين من طرف قوات اجنبية ، قد وجدوا فرصة نشر قصائدهم الحماسية بعد ان تهيا لهم جو من الحرية ، كانوا يتوقون اليه من قبل .

لقد وجد هؤلاء الشعراء في المواطن الارجنتين الاخ الذي فتح لهم ذراعيه بحرارة وصدق ـ ونحن نقول هذا عن تجربة ـ ووجدوا في الارجنتين نفسها الركن الذي رحب بهم اشد الترحيب ، وهو بالنسبة لهم ينبوع الهام لتفكيرهم وتاملاتهم .

بهذه الكلمات الختامية ، نقدم شكرنا عن هذا الكرم النبيل ، ونستاذن لنحمل لهذا الوطن الجديد تحية شعرية من اوطاننا الاصلية .. مرات تفوق الآلاف .

---

1) وفي رواية اخرى ان شاعرا زار شاعرا آخر ، فلما طرق باب بيته خرج خادمه ، فقال له : ان سيدي لا يستقبل الا من كان يحفظ ـ على الاقل ـ الف قصيدة ! . فاجابه الشاعر الزائر : اذهب وقل لسيدك هل يعني الف قصيدة من شعر الرجال ام من شعر النساء ! (المترجم)